بلال ضاهر (*)

بين الغيبية الفكرية الصهيونية والثيولوجيا السياسية الإسرائيلية

(*) الكتاب: أسطورة نيوبي - الأخلاق والعنف في الأساطير المعاصرة

(*) المؤلف: دافيد أوحانا

(*) الناشر: هكيبوتس هميئوحاد، ٢٠١٠

(*) عدد الصفحات: ٣٣٤ صفحة

(*) تعتمد الحركة الصهيونية، وما انبثق عنها من تيارات فكرية، على الإرث التوراتي لخلق رابط بين الروايات التوراتية واليهود في العصر الحديث بغية تبرير قيام إسرائيل. ومع مرور السنين، بعد النكبة الفلسطينية في ١٩٤٨ وبشكل أوسع بعد النكسة العربية في ١٩٦٧، راح يتفتق الذهن اليهودي - الصهيوني عن أفكار وأيديولوجيات تهدف إلى إقناع الذات بوجوب التوسع الاستيطاني في المناطق المحتلة العام ١٩٦٧ وخصوصا في الضفة

(*) صحافي فلسطيني- الناصرة.

الغربية. وتأسست حركات عقائدية متطرفة ما زال تأثيرها كبيرا على الإسرائيليين، لكن في موازاة ذلك تعالت أصوات لمثقفين إسرائيليين تدعو إلى الانفصال عن الفلسطينيين في الأراضي المحتلة حديثا، ليس تعاطفا مع الفلسطينيين أو تطبيقا لقرار تقسيم فلسطين، وإنما من أجل ترسيخ فكرة "الدولة اليهودية" وعدم تحولها إلى دولة جميع مواطنيها. غير أن هذه الفئة الثانية لم تنجح في إقناع معظم اليهود – الإسرائيليين بأفكارها، وفي الوقت ذاته لم تتم إقامة دولة جميع مواطنيها.

ويتناول كتاب "أسطورة نيوبي – الأخلاق والعنف في الأساطير المعاصرة" أيديولوجيات العنف على أنواعها، ويستعرض عنف الدولة والعنف في الفكر الفلسفي الأوروبي القديم والحديث والمعاصر. ويتساءل المؤلف، وهو المؤرخ والباحث في الأساطير والمحاضر في جامعة بئر السبع، البروفسور دافيد أوحانا، أي أخلاقيات يتعين على الإنسان أن يتبنى في مواجهة العنف الذي يعتمد على الأساطير الإلهية أو السياسية؟ وما هو رده على المصير العنيف للرؤية السياسية الدينية أو الأنظمة الاستبدادية؟. ويستعرض في هذا السياق فكر كبار المفكرين الأوروبيين، مثل فريدريك نيتشه وولتر بنيامين وجاك دريدا وألبير كامي وغيرهم، وآراء المفكرين والأدباء الإسرائيليين، مثل س. يزهار وأهارون أبلفيلدوأ. ب. يهوشواع ويوسف بن شلومو، ويتحاور مع بعضهم.

واستعار المؤلف قصة نيوبي ابنة تانتالوس ملك فريجيا وأخت بيلوبس ملك البيلوبونيز وزوجة أمفيون الطيبي. وكان لدى نيوبي سبعة أبناء وسبع بنات وكانت تفتخر بجمالهم وسخرت من ليتو لأن لديها ابنا واحدا هو أبولو وابنة واحدة هي آرتميس، فاستفزهم هذا وانتقموا من نيوبي بأن قتلوا أبناءها. وقد قتل أبولو الأبناء وقتلت آرتميس البنات. وبقيت جثثهم غير مدفونة لتسعة أيام ثم دفنتهم الآلهة. وعادت نيوبي إلى وطنها وظلت تبكي حتى تحولت إلى حجر، حيث تبكي على خسارتها للأبد. وهو ما تحدث عنه هوميروس في الإلياذة وكذلك أبولودوروس وأوفيد. والصخرة وقصة نيوبي أعطتا بعدا أخلاقيا استمد منه الكتاب التراجيديون حول ما يصيب سعادة الإنسان من خلل، حيث أصبحت نيوبي مثالا للطبيعة البشرية والمسؤولة عن الكبرياء عند الازدهار ونسيان احترام وطاعة الآلهة.

الكنعانية المسيانية

يرى أوحانا في الفتوى الصادرة عن الحاخام أفي غيسر، حاخام مستوطنة "عوفرا"، في أعقاب قرار حكومة بنيامين نتنياهو تعليق البدء بأعمال بناء في مستوطنات الضفة الغربية، والتي يسمح فيها بتنفيذ أعمال بناء بيوت جديدة في أيام السبت، بسبب عطلة المفتشين من جانب الحكومة على حظر تنفيذ أعمال البناء هذه، أنها تشكل "حجرا أساسيا آخر" في ترسيخ ما يسميه "كنعنة الحركة الاستيطانية الدينية. وهذه ليست المرة الأولى التي استوجبت فيها فريضة 'استيطان البلاد' الانحراف عن أصول الشريعة اليهودية المتعلقة بـ[قدسية يوم] السبت... وإضافة إلى الفكر المسياني [الغيبي] للمستوطنين فإنهم يظهرون ككنعانيين – جدد متدينين ويمينيين، يرفعون من أهمية قيمة 'البلاد' على قيمتي 'التوراة' و'الشعب'".

وتختلف "الكنعانية المسيانية" عن "المجموعة الكنعانية" التي تأسست في منتصف القرن الماضي في إسرائيل من نخب يهودية مثقفة، لأن التجديد الذي طرحته هذه المجموعة كان التمرد الشامل ضد اليهودية كقيمة دينية وثقافية وعرقية، ونادت بالتحول إلى الأصلانية [بمعنى اعتبار اليهود الإسرائيليين من سكان البلاد الأصليين] وتبني هوية قديمة. ولم تدع "المجموعة الكنعانية" إلى "عبرنة" إسرائيل وإنما إلى "إعادة عبرنة" الوطن العربي كله. أما المستوطنون الحاليون من تيار الصهيونية – الدينية فإنهم ينادون بـ "عبرنة" الضفة الغربية.

ويشير أوحانا إلى أن الحاخام أبراهام إسحق هكوهين كوك كان أول من مزج بين الدنيوية والقدسية، ورأى أن الصهيونية العلمانية هي "حركة قومية جاءت لتحافظ على الدين"، وأن "الوطن يعزز اليهودية المعاصرة وعلى الإسرائيليين أن يشددوا على العلاقة بين الشعب والأرض الموعودة". بعد ذلك خلف الحاخام تسفي يهودا كوك والده وانتقل من فكر والده إلى الفكر المسياني الغيبي ولقنه لتلاميذه الذين أسسوا حركة "غوش إيمونيم" الاستيطانية ولأبنائهم الذي شكلوا ما يعرف بـ "شبيبة التلال".

ووفقا لأوحانا فإن الحاخام تسفي يهودا كوك، وهو رئيس ييشيفاة "مركاز هراف" في القدس، اقترح على الشاعر "الكنعاني" أهارون أمير تبرعا ماليا من أجل إعادة إقامة "المجموعة الكنعانية" بعد الاحتلال في العام ١٩٦٧. لكن أمير وغيره من مؤسسي "المجموعة الكنعانية" كانوا يرون أن

ضم الضفة الغربية، مع سكانها الفلسطينيين إلى إسرائيل يعني نهاية الطابع اليهودي لإسرائيل. كذلك فإنه في تلك الفترة ثار نقاش بين المثقفين اليهود، الذين عارض غالبيتهم فكرة إعادة تأسيس الحركة الكنعانية العبرية. ويلخص أوحانا هذا النقاش بأنه "على الرغم من أن الاحتلال مفسد لكن هذا ليس ادعاء مبتكرا. والجديد هو أن الاحتلال ينتقص من اليهودية وليس من الصهيونية فقط".

وكان هدف الحاخام كوك من إعادة تأسيس الحركة الكنعانية أن يزرع لدى المستوطنين في الضفة الغربية، منذ بداية المشروع الاستيطاني، الشعور بأنهم سكان البلاد الأصليون، علما أن غالبيتهم الساحقة هاجرت إلى البلاد من جميع أنحاء العالم. وقد سعى الحاخام كوك إلى ذلك رغم أن "الحركة الكنعانية"، التي تأسست في منتصف القرن الماضي، كانت حركة علمانية وحتى أنها دعت إلى عزل أبناء البلاد اليهود عن يهوديتهم وإقامة أمة "عبرانية". وتجدر الإشارة إلى أن تسمية "الكنعانيين" لم يطلقها مؤسسوها على حركتهم وإنما أطلقها عليهم خصومهم وأولهم الشاعر أبراهام شلونسكي، وذلك للسخرية منهم والتنديد بأفكارهم. أما هم فقد أطلقوا على أنفسهم اسم "الشباب العبريين".

لكن أوحانا يعتبر أن ثمة تعبيرات عديدة ومتنوعة للفكرة الكنعانية، لا علاقة لها بالحركة الكنعانية، في المجال العام الإسرائيلي. وأن التغيرات الاجتماعية والديمغرافية في إسرائيل وبين اليهود في أنحاء العالم أدت إلى انخفاض قوة النقاش حول الخيار الكنعاني.

وأشار المؤلف في هذا السياق إلى أن "تقلص الشعب اليهودي في الشتات، والنمو الديمغرافي المثير للإعجاب لدى الإسرائيليين، وخصوصا بين مواليد البلاد، وهجرة أكثر من مليون من مواطني الاتحاد السوفييتي السابق إلى إسرائيل، والكثيرون منهم ليسوا من أصول يهودية، والعولمة التي أحضرت على جناحيها عددا كبيرا من مهاجري العمل، الذين وُلد لقسم منهم أولاد هنا – كل هذا وأمور أخرى هو دليل على أن الفكرة الكنعانية انطلقت خارج الصالونات المغلقة، ومن شأنها أن تتحقق بدون توجيه من موجهٍ وليس من خلال توقع تحقق حلم يوتوبي، وإنما بسبب ضرورات واقعية خالية من الأيديولوجيا".

"اليهود العصريون حُراس التوراة"

رفض آباء الحركة الصهيونية الفكرة الكنعانية، التي نشأت بعد سنوات طويلة جدا من الفكر الصهيوني. فالصهيونية ترى أن "الأمة" العبرية مرتبطة بشكل وثيق للغاية بـ "الطائفة" اليهودية. وسعت الصهيونية إلى ربط تاريخ اليهود، في جميع مراحله، بأرض فلسطين. ورغم أن قيام إسرائيل جاء في إطار مخطط استعماري، ساعدت الحركة الصهيونية في تحقيقه، إلا إن الصهيونية قدمت نفسها على أنها تطور ثوري في الفكر اليهودي، يتيح وحتى أنه يطالب بتحقق الحلم المسياني بواسطة فعل إنساني.

من جانبه، استخدم الحاخام كوك الأب فكرة "الخلاص المسياني" كعملية ديالكتيكية تنمو من داخل الصهيونية العلمانية. وطوّر أسلوبا فكريا مبتكرا يقول إن الرب أحضر فكرة القومية إلى العالم من أجل الحفاظ على الدين. وهو يريد القول بذلك، وفقا لأوحانا، إن "القومية والوطن تعززان اليهود المعاصرين الذين يحرسون التوراة... ومن هنا فإنه لا يوجد سبب يجعل [اليهود] الأرثوذكس يتخوفون من الطلائع العلمانيين". وقد سعى كوك من وراء نظريته المسيانية – الصهيونية – الأرثوذكسية إلى الربط بين التراث الغيبي اليهودي وفكرة العودة إلى صهيون العلمانية.

ويشير أوحانا إلى أن "الحنين للمسيانية، الذي رافق الصهيونية منذ بداية طريقها، كان دائما مثار جدل حاد بين المتمسكين بالحنين للمسيانية وأولئك الذين تخوفوا منه... لكن الحنين للمسيانية لم يبق منحصرا في المعسكرات المختلفة داخل الحركة الصهيونية. وقد رافق قيادة دولة إسرائيل توتر بالغ حول الأحلام الأيديولوجية وتخوف بشأن البقاء وآمال مسيانية. وحتى بعد قيامها، سعى مؤسس الدولة [دافيد بن غوريون] إلى تأميم المسيانية وإلى إعطائها صورة رسمية، ما أثار ضده معارضة من جانب مفكرين [متدينين] أرثوذكسيين ومثقفين علمانيين. وبعد حرب الأيام الستة تحول النقاش الفكري إلى خلاف سياسي، لكن هذه المرة من جانب قوى ثقافية مختلفة في الخريطة السياسية والنسيج الاجتماعي الإسرائيلي. والحنين للمسيانية كان من جانب قوى متنوعة ومتغيرة داخل الخطاب الصهيوني والإسرائيلي، بحيث منحته كل جهة معاني أخلاقية ووجودية خاصة بها، وما زال هذا الوضع قائما حتى اليوم بين مؤيدي هذا الحنين، الذين يرون فيه وعدا دينيا وتحديا لم يتحقق بعد، وبين منتقديه، الذي يرون بهذا الحنين أنه يشكل تهديدا وجوديا ودليلا على انعدام العقلانية السياسية".

وبدأ أحد الصراعات بين العلمانيين والمسيانيين بعد حرب الأيام الستة مباشرة. فالمثقفون البارزون من فرع "غفعات رام" للجامعة العبرية في القدس، يهوشواع أريئيلي ويعقوب طلمون ونتان روتنشترايخ، الذين كانوا يخوضون نضالا ضد بن غوريون حول قضية "العمل المشين" [المرتبطة بالتفجيرات التي نفذها عملاء إسرائيل في مصر في الأعوام ١٩٥٣-١٩٥٤]، وجدوا أنفسهم بعد الحرب في جانب واحد مع بن غوريون. وحذروا من "الكنعانية المسيانية" التي وجدت مرسى لها في حلم "أرض إسرائيل الكاملة". وكان أريئيلي يرى في حينه بمبادئ المساواة والتراث التنويري، مثل فكرة حق تقرير المصير، قيما سامية وبضمن ذلك ما يتعلق بالصراع الإسرائيلي – الفلسطيني. وكان أريئيلي، في اليوم السابع لحرب الأيام الستة، بين الأوائل الذين حذروا في إسرائيل من الأسس المسيانية والكنعانية الماثلة في جذور أفكار حركة "أرض إسرائيل الكاملة"، وفي إثر ذلك أسس حركة السلام بعد الحرب المعروفة باسم "الحركة من أجل السلام والأمن".

وكتب أوحانا أنه "سوية مع الرؤيا المسيانية الفاشية يتطور، برأي أريئيلي، بين مؤيدي أرض إسرائيل الكاملة منظور كنعاني للبلاد. وتم رفع أي جانب يتعلق بأرض إسرائيل، الطبيعة، المجال الجغرافي، فصول السنة، العادات والذاكرة، إلى درجة القدسية". ويبدو أن هذا الوصف ينطبق على طبيعة الصهيونية اليوم، في ظل الهيمنة اليمينية – الدينية التي ترفض التسوية مع الفلسطينيين. لكن أوحانا يشير في هذا السياق إلى أن "الأغلبية في الحركة الصهيونية استمرت [بعد حرب الأيام الستة واحتلال ما تبقى من فلسطين التاريخية] في تفضيل الاستقلال القومي في أرض إسرائيل على التمسك بالارتباط مع كل أرض إسرائيل، وهكذا تم تحديد سلم الأولويات".

غير أن الكثيرين من معسكر "أرض إسرائيل الكاملة" طالبوا بمنح المواطنة لجميع الفلسطينيين ودمجهم بدولة إسرائيل. ورد أريئيلي على ذلك بالقول إن "هؤلاء هم 'الكنعانيون' السابقون، الذين يرون، وبحق، في خطة أرض إسرائيل الكاملة فرصة تاريخية لتحقيق أفكارهم وأحلامهم، لكن موقفهم نابع من حقيقة أنهم نفوا دائما أهداف الحركة الصهيونية وتعريف دولة إسرائيل كدولة يهودية. ويؤمن الكنعانيون، أنصار أرض إسرائيل الكاملة، أنه بواسطة تنكر المجتمع لطبيعته اليهودية والصهيونية ستتمكن الدولة من التوصل إلى دمج كامل للسكان في دولة واحدة". لكن أوحانا أشار إلى أن أريئيلي لقي صعوبة في فهم منطق أعضاء حركة "أرض إسرائيل الكاملة" الذين "يبدون استعدادا لهدم الطبيعة اليهودية لإسرائيل باسم حدود الوعد التوراتي".

من جانبه، ميّز طلمون بين "المسيانية العلمانية" للصهيونية، التي تشمل بن غوريون أيضا، ورأى أنها تتضمن جوانب براغماتية تتمثل "بعودة اليهود إلى التاريخ"، وبين الثيولوجيا السياسية لدى "غوش إيمونيم"، التي هي "هروب من التاريخ" وتكون فيها السياسة خاضعة لأوامر دينية. ووفقا لطلمون فإن أعضاء 'غوش إيمونيم' أشاروا إلى الانتصار في حرب الأيام الستة على أنه نقطة بداية الخلاص، واعتبروا احتلال المناطق [خصوصا الضفة الغربية] أنه يمثل إصبع الرب".

الثيولوجيا السياسية لدى بن غوريون

يقول أوحانا إن "جذور الرؤيا المسيانية العلمانية لدى دافيد بن غوريون تبلورت في المراحل الأولى لفكره السياسي والاجتماعي، الذي نشأ في مناخ الأفكار الثورية الأوروبية وبموجب التراث المسياني العلماني الصهيوني". ويتبين من تحليل مذكراته الشخصية ومراسلاته ومقالاته وخطاباته أن "التعبير المسياني يرافق سيرته الذاتية كلها. ووجهة النظر المسيانية البن غوريونية، التي تمت بلورتها بمنهجية في سنوات الخمسين، لم تكن غايتها احتياجات تكتيكية، أي خلق خطاب تقليدي تجاه جمهور مهاجرين جدد، وإنما كانت هذه ثيولوجيا سياسية موجهة نحو إعادة صياغة أهداف رسمية إسرائيلية تم بناؤها على الأيديولوجيا الصهيونية... وبنظره، فإن العنصر المسياني، الذي كان بمثابة أسطورة مجندة لبناء الأمة الشابة، كان خاليا من مضمون ديني أو معان لما وراء الطبيعة. وكانت غايته التعبير عن أخلاق مناسبة يتم استخدامها في الدعوة للاستيطان وتجنيد الشبيبة والربط بين أجزاء المجتمع العديدة والمتنوعة [في مجتمع مهاجرين] لتتحول إلى جسد مستقل ورسمي. لكن الأساس المركزي في رؤياه السياسية كان الدعوة إلى الدولة القومية اليهودية الشابة لأن تشكل قوة طليعية في خدمة القيم العالمية [الغربية الاستعمارية والإمبريالية] للبشرية".

ويعتبر بن غوريون أن "الفكرة المسيانية تدفع التاريخ بصورة جدلية تجاه هدفه... والفكرة المسيانية اليهودية مستمرة في التقدم من مرحلة تاريخية واحدة إلى أخرى، من الهيكل الأول إلى الهيكل

الثاني وحتى تأسيس الهيكل الثالث في نهاية العالم. وبذلك يرتبط سوية التراث الثيولوجي – اليهودي والأيديولوجيا الصهيونية – العلمانية".

وأشار أوحانا هنا إلى أنه "يتماثل أمامنا إذن مفهوم يعتبر الخلاص – العلماني – عملية تاريخية تتحقق على مراحل، وليس نهاية التاريخ. وبهذا المفهوم استمر مؤسس الدولة الثورة العلمانية التي صنعتها الصهيونية في التاريخ اليهودي من خلال تحويل مصطلحات ثيولوجية تقليدية إلى لغة قومية. وأوصل بن غوريون هذه الخطوة العصرية إلى أوجها بإعلان [قيام] الدولة، التي تعبر عن إرجاء النهاية. ويتم استيعاب عمله هذا على أنه بداية الخلاص".

إلى جانب ذلك أدرك بن غوريون، وفقا لأوحانا، أن "'ما نصنعه بأيدينا' هو الشرط لتحقيق المسيانية العلمانية لهرتسل [ثيودور هرتسل، واضع فكرة "دولة اليهود"]. وكانت هذه القناعة مركزية في بلورة طريق بن غوريون الثقافية والسياسية".

خاتمة

يستعرض أوحانا في كتابه ما يصفها بـ "المسيانية الصهيونية" العلمانية والدينية الغيبية، من خلال بذل جهد واضح بالإطلاع على مصادر عديدة ومتعددة حول الجذور الغيبية للفكر الصهيوني على أشكاله. لكنه في القسم الأخير من الكتاب يسعى إلى فرض مفاهيم تقع ضمن الإجماع الصهيوني. ورغم أن أوحانا يرفض المقارنة، التي يجريها الإسرائيليون، بين زعيم تنظيم القاعدة، أسامة بن لادن، والزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، إلا إنه يسمي، كما هو حال الإجماع في إسرائيل، المقاومة الفلسطينية بأنها "إرهاب منظمة التحرير الفلسطينية" الذي "يجب اجتثاثه بالطبع". كما يعتبر أن على الفلسطينيين التنازل عن حق العودة للاجئين مقابل تسوية مع إسرائيل تنسحب فيها الأخيرة من الأراضي المحتلة العام ١٩٦٧.

وينفي أوحانا، بجرة قلم، دراسات وأبحاثا عميقة وضعها باحثون إسرائيليون. ومن هذه الدراسات تلك التي تشدد على أن الصهيونية هي حركة كولونيالية استيطانية. كما يعتبر أن الصهاينة ليسوا صليبيين جدداً. ويعلل ذلك بالإدعاء أن "الاستيطان الصهيوني في أرض إسرائيل تم بدون مساعدة قوات عسكرية وسياسية تابعة لدول أجنبية". وهذا ادعاء باطل بكل تأكيد. لأن الحقائق والدراسات والأبحاث التاريخية تؤكد تعاون الانتداب البريطاني مع الحركة الصهيونية. وإلا ماذا يعني صدور "وعد بلفور"، أو اللجان التي تم إرسالها إلى فلسطين، في فترة الانتداب، وأصدرت التقارير حول تقسيم البلاد. لكنه بعد ذلك يدعي الموضوعية الأكاديمية، عندما يكتب أن المستوطنين هم "صليبيون يهود"، لأن هناك دولة أرسلتهم وتمولهم وما إلى ذلك.

ولا يأتي هذا النقد لأوحانا لمجرد النقد، رغم أن بعض ما جاء في كتابه يستحق النقد. لكن المشهد الأكاديمي في إسرائيل، خصوصا بين الأكاديميين الباحثين في علوم التاريخ والسياسة، مختلف عن الإجماع العام في إسرائيل. في الأكاديميا الإسرائيلية لا يوجد إجماع حول صدق الرواية الصهيونية ولا على حل الصراع. فهناك عدد كبير من الباحثين الذين يؤكدون على أن الصهيونية هي حركة كولونيالية أقامت دولة على أنقاض شعب بعد عملية تطهير عرقي بشعة. بل إن المؤرخين الإسرائيليين هم أفضل من وثّق ووصف عمليات التطهير العرقي والمجازر. لكن أوحانا اختار أن ينقل الرواية الصهيونية الرسمية من دون نقدها، وربما يكون بذلك قد انتقل من البحث الأكاديمي إلى التنظير السياسي، لكن رغم ذلك فإنه يسلط الضوء على جانب مثير في الفكر الصهيوني.